المحاضرة رقم 01: نشأة علم الاجتماع الثقافي، مجالاته ومناهجه، وعلاقته بالعلوم الأخرى

تمهيد

يحتلّ علم الاجتماع الثقافي مكانة متنامية داخل الحقول السوسيولوجية المعاصرة، باعتباره أحد الفروع التي أعادت الاعتبار للثقافة بوصفها مدخلاً أساسياً لفهم الفعل الاجتماعي، وبناء المعنى، وتنظيم الحياة الجماعية. فبعد هيمنة المقاربات البنيوية والاقتصادية التي ركزت على المؤسسات والهياكل المادية، برزت الحاجة إلى مقاربة تفسّر كيف تُنتَج القيم، وكيف تتشكّل الرموز، وكيف تُبنى التمثلات الاجتماعية التي توجّه سلوك الأفراد والجماعات.

وانطلاقًا من هذا التحول، جاء علم الاجتماع الثقافي ليستجيب للتساؤلات المرتبطة بعلاقة الثقافة بالمجتمع، وبكيفية تشكّل المعنى والهوية، وبأثر الرموز واللغة والطقوس في إعادة إنتاج النظام الاجتماعي أو مقاومته. وتسعى هذه المحاضرة إلى تقديم مدخل شامل لهذا الحقل المعرفي من خلال تتبّع نشأته وسياق ظهوره، وتحديد مجالات اهتمامه، واستعراض أهم مناهجه، إلى جانب إبراز علاقته التداخلية بالأنثروبولوجيا وبقية العلوم الإنسانية والاجتماعية، بما يعكس طابعه البين–تخصصي وقدرته على تحليل الظواهر الثقافية المركبة في المجتمعات التقليدية والمعاصرة.

أولا: نشأة ومفهوم علم الاجتماع الثقافي

يعد علم الاجتماع الثقافي فرعا من فروع علم الاجتماع الذي يهتم بدراسة الثقافة، ويرجع الفضل في إنشاءه إلى "**ألفريد فيبر Alfred weber**" ، ونظرا للأهمية التي احتلتها نظرية " ألفريد فيبر " في ميدان تطوير علم الاجتماع الثقافي ، فقد حللها عدد من علماء الاجتماع وعلقوا عليها ، وفي مقدمتهم عالم الاجتماع الانجليزي "بوتومور".

لقد انكب "الفريد فيبر" على دراسة طبيعة الحضارة الحديثة، متبعا في ذلك الأسلوب التاريخي والمقارن ، أما علم الاجتماع الثقافي الذي كرس له جهوده، فكان بمثابة المحاولة التي تمكن من خلالها من الإجابة عن الأسئلة والاستفسارات التي أثيرت حول موضوع الثقافة وعلم الاجتماع، حيث حاول أن يميز بين الثقافة والحضارة ، إذ قال بأن " **الحضارة تشتمل على المعرفة الوضعية والعلم والتكنولوجيا ، والتي تتكون من معلومات يمكن تمريرها من جيل إلى جيل، وتتمتع بدرجة عالية من الدقة ، أما الثقافة فتتعلق بدراسة الأشكال الروحية للإنسان ، وما تتضمنه من قيم ومقاييس وعادات وأفكار وانطباعات ، لا يمكن القول أنها صحيحة أو غير صحيحة ، وذلك لمرونتها ونسبيتها واختلافها من مجتمع لآخر، ومن فرد لآخر، ومن فترة زمنية لأخرى**".

يوجد اليوم اتفاق واسع بين علماء الاجتماع من أجل الاهتمام بدراسة الثقافة، الاهتمام الذي أتى متأخرا في مسيرة علم الاجتماع المعاصر ، ويصدق هذا على كل من علم اجتماع الثقافة sociology of culture the وعلم الاجتماع الثقافي cultural

sociology. أما الأول فقد ظهر في بداية السبعينات من القرن العشرين، بينما اقترن بروز الثاني في التسعينات من القرن الماضي بما عرف بالتحول الثقافي.

تُعرف **سبيلمان spillman** علم الاجتماع الثقافي بأنه: "**علم يدرس كيف تحدث عملية إنشاء المعنى، ولماذا تختلف المعاني وكيف تؤثر المعاني على السلوك البشري الفردي والجماعي ، وكيف أن طرق إنشاء المعاني أمر مهم بالنسبة للتلاحم الاجتماعي وللهيمنة والمقاومة في المجتمعات**".

وفي معالجته للجذور الأولى لعلم الاجتماع الثقافي ذهب **دون مارتينال Don martinal** بأن أهم سمة من سمات التفكير السوسيولوجي –خاصة الاتجاه الوضعي في القرن التاسع عشر– هو معالجة التجمع الإنساني على أنه السبب الأساسي لتفسير كل ما يحدث بداخله، ولهذا ليس هناك خط واضح يفصل بين الثقافة والمجتمع أو بين الصفة الشخصية والأشكال الاجتماعية المتطلبة أو بين الأدوات والأفكار .

ولعل إحدى النتائج الهامة من كل هذا، هو إقامة علم اجتماع ثقافي كمجال للبحث في العلوم الاجتماعية .

ومن المشاكل التي لم تحسم في هذا الميدان هو العلاقة بين الفروع المتنوعة الخاصة بعلم الاجتماع الثقافي وعلاقة بعضها بالعلوم الاجتماعية الأخرى خاصة الانتروبولوجيا الثقافية.

ويهتم علم الاجتماع الثقافي بدراسة السلوك الإنساني الملاحظ ، وما ينتج عن هذا السلوك من صناعة واستعمال الآلات والأدوات والوسائل المستخدمة لاستثمار الطاقة ، والتي تكون في مجموعها الطريقة الخاصة التي يتميز بها كل مجتمع إنساني عن المجتمعات الأخرى، كما يهتم بالدراسة العلمية للغة ، والقيم، والمعايير، والمعتقدات ، والتي تؤثر على السلوك الإنساني والعلاقات الانسانية التي تكون النظم الاجتماعية ، إلى جانب دراسة الآلات والأدوات والمسكن والملابس وغيرها من الأنشطة المادية والثقافية وكيفية توافق الأفراد مع البيئة الطبيعية التي يقيمون عليها.

ثانيا: مجالات علم الاجتماع الثقافي

رقم	المجال	المفهوم	الأهمية السوسيولوجية	أمثلة تطبيقية
1	**التنشئة الاجتماعية**	عملية نقل القيم والمعايير والعادات الثقافية من المجتمع إلى الأفراد، خاصة الأجيال الجديدة	تفسير كيفية تشكّل الشخصية الاجتماعية والثقافية للفرد	– التنشئة الأسرية – دور المدرسة في غرس القيم – التعليم الديني
2	**التغير الثقافي**	دراسة التحولات التي تطرأ على القيم والمعتقدات وأنماط السلوك عبر الزمن	فهم دينامية المجتمع وقدرته على التكيف مع المستجدات	– تغير تقاليد الزواج – تأثير التكنولوجيا ووسائل التواصل
3	**الثقافة والمجتمع**	تحليل العلاقة التبادلية بين الثقافة والبنية الاجتماعية	إبراز دور الثقافة في تنظيم العلاقات الاجتماعية	– دور القيم الدينية في التضامن الاجتماعي
4	**الثقافات الفرعية**	دراسة الجماعات داخل المجتمع التي تمتلك أنماطًا ثقافية خاصة	فهم التنوع الثقافي داخل المجتمع الواحد	– ثقافة الشباب – ثقافة الريف والمدينة
5	**الرموز واللغة**	دراسة اللغة والرموز باعتبارها أدوات لنقل المعاني الثقافية	فهم التواصل الاجتماعي وبناء الهوية	– الرموز الوطنية – اللهجات المحلية
6	**الفنون والثقافة المادية**	دراسة الإنتاج الثقافي المادي والرمزي للمجتمع	الكشف عن هوية المجتمع ومستواه الحضاري	– الفلكلور – الموسيقى الشعبية – المعمار التقليدي
7	**الثقافة في المجتمعات المعاصرة**	دراسة تأثير العولمة والإعلام والتكنولوجيا على الثقافة	تحليل التحديات الثقافية المعاصرة	– العولمة الثقافية – الثقافة الرقمية

ثالثا: أهم مناهج علم الاجتماع الثقافي

رقم	المنهج	تعريفه	أدواته وتقنياته	مجالات استعماله	مثال تطبيقي
1	**المنهج الوصفي**	يهدف إلى وصف الظواهر الثقافية كما هي في الواقع دون تفسير أو إصدار أحكام	الملاحظة، المقابلة، تحليل الوثائق، تسجيل العادات والتقاليد	دراسة أنماط السلوك، العادات الاجتماعية، التقاليد الشعبية	وصف طقوس الزواج في المجتمع الجزائري
2	**المنهج التاريخي**	يهتم بدراسة تطور الظواهر الثقافية عبر الزمن وتحليل مراحل نشأتها وتغيرها	الوثائق التاريخية، الأرشيف، المخطوطات، الروايات الشفوية	دراسة تطور القيم والعادات والمؤسسات الثقافية	تطور اللباس التقليدي عبر الفترات التاريخية
3	**المنهج المقارن**	يقوم على مقارنة الظواهر الثقافية بين مجتمعات مختلفة أو داخل المجتمع الواحد	المقارنة الإحصائية، الدراسات الميدانية، التحليل الثقافي	إبراز أوجه التشابه والاختلاف الثقافي	مقارنة أنماط التنشئة الاجتماعية بين الريف والمدينة
4	**المنهج التحليلي**	يسعى إلى تفكيك الظواهر الثقافية وفهم العلاقات بين عناصرها	تحليل المضمون، الاستبيانات، المقابلات المعمقة	تفسير المعاني والدلالات الثقافية	تحليل القيم الدينية وأثرها على السلوك الاجتماعي
5	**المنهج البنيوي**	يدرس البنى العميقة والأنساق الرمزية التي تحكم الثقافة	تحليل الرموز، الأساطير، اللغة	دراسة الثقافة كنظام رمزي متكامل	تحليل الأساطير الشعبية ودلالاتها الاجتماعية
6	**المنهج الإثنوغرافي**	يعتمد على المعايشة المباشرة للمجتمع المدروس لفهم ثقافته من الداخل	الملاحظة بالمشاركة، اليوميات الميدانية، المقابلات المفتوحة	دراسة المجتمعات المحلية والتقليدية	دراسة العادات الغذائية في قرية جزائرية
7	**المنهج الوظيفي**	يركز على وظيفة الظواهر الثقافية في تحقيق التوازن والاستقرار الاجتماعي	التحليل الوظيفي، دراسة الأدوار الاجتماعية	فهم دور الثقافة في الحفاظ على النظام الاجتماعي	وظيفة الطقوس الدينية في تحقيق التضامن

8	**المنهج النقدي**	يدرس الثقافة من زاوية السلطة والهيمنة والصراع الاجتماعي	تحليل الخطاب، النقد الثقافي	كشف علاقات القوة والهيمنة الثقافية	دراسة الإعلام وتأثيره في تشكيل الوعي الاجتماعي

رابعا: علاقة علم الاجتماع الثقافي بالأنثروبولوجيا

يعدّ **علم الاجتماع الثقافي** أحد فروع علم الاجتماع التي تهتم بدراسة الأبعاد الرمزية والمعنوية للحياة الاجتماعية، بما في ذلك القيم، المعاني، الرموز ، التمثلات، الممارسات الثقافية، والأنساق الدلالية التي تشكّل رؤية المجتمع للعالم .(Worldview) وبذلك، فهو مجال يتقاطع بصورة وثيقة مع العديد من العلوم الإنسانية والاجتماعية، وعلى رأسها **الأنثروبولوجيا الثقافية**.

إن فهم الثقافة يتطلب مقاربة متعددة الأبعاد؛ فالثقافة ليست مجرد نسق من القيم وإنما بناء معقد يحدد أنماط التفكير والسلوك، وهذا ما يجعل علم الاجتماع الثقافي لا يستطيع العيش دون الاستفادة من المناهج، الأدوات، والنظريات التي طوّرتها الحقول الأخرى.

1. العلاقة التاريخية

أ- **الانطلاقة المشتركة:** كلا العلمين ولدا من رحم القرن 19، وعاشا في الأصل تحت سقف **العلوم التي تدرس الإنسان في المجتمع**. كما ركز علم الاجتماع على المجتمعات الصناعية الحديثة، بينما ركّزت الأنثروبولوجيا على المجتمعات "البدائية" (وفق مفهوم تلك الفترة).

ب- **التأثير المعرفي المتبادل:** أسهم دوركايم في التأثير على الأنثروبولوجيين من خلال مفهوم "الوقائع الاجتماعية." كما الأنثروبولوجيا في علم الاجتماع عبر إدخال منهج **الملاحظة بالمشاركة**. كما أصبح **كليفورد غيرتز** –وهو أنثروبولوجي– مرجعًا أساسيًا في علم الاجتماع الثقافي المعاصر.

ج- **الانتقال نحو التقارب:** مع منتصف القرن العشرين، انتقلت الأنثروبولوجيا نحو دراسة المجتمعات الحضرية المعقدة، بينما أصبح علم الاجتماع أكثر اهتمامًا بالثقافة والبنى الرمزية، مما ألغى الحدود بين الحقلين.

2. نقاط الالتقاء بين علم الاجتماع الثقافي والأنثروبولوجيا

أ- **وحدة الموضوع:** أي الثقافة، فكلا العلمين يدرسان القيم والمعاني والرموز والطقوس والمعتقدات وأنظمة التمثيل.

ب- **الاهتمام بالفعل الرمزي:** حيث يركزان على التأويل والفهم العميق للمعنى والتمثلات والمخيال الاجتماعي.

ج- **المقاربة الكيفية:** حيث يعتمدان على المقابلات المعمقة وتحليل الخطاب، والاثنوغرافيا ودراسة الحالة.

د- **الاهتمام بالهوية والانتماء:** الهوية الثقافية، الهوية الجماعية، الانتماء الرمزي والاجتماعي.

3. التكامل المعرفي والمنهجي بين العلمين

البعد	مجال التكامل	المفاهيم / المناهج المشتركة	أمثلة تطبيقية
التكامل النظري	تداخل الأطر والمفاهيم التفسيرية	• الوصف الكثيف (كليفورد غيرتز) • الهيمنة الثقافية (غرامشي) • الرمزية – التفاعلية • تحليل المعنى والرموز	• تحليل المعاني الثقافية للممارسات الاجتماعية • دراسة السلطة والرموز والشرعية الثقافية
التكامل المنهجي	تقارب أدوات البحث وأساليب التحليل	• المنهج التأويلي • الإثنوغرافيا • التحليل البنيوي • المقاربات متعددة المستويات (Micro / Macro)	• الجمع بين الملاحظة بالمشاركة والتحليل البنيوي • الربط بين التجربة الفردية والبنى الاجتماعية
التكامل الميداني	اشتراك في مجالات الدراسة التطبيقية	• تحليل التغير الثقافي • دراسة الهوية والتمثلات • تحليل الخطاب والطقوس	• التغير الثقافي في المدن • الشباب والهوية • الطقوس السياسية والتحشيد • الثقافة الرقمية
طبيعة العلاقة	علاقة تداخل بين–تخصصي (Interdisciplinarity)	• تجاوز الحدود الصارمة بين العلمين • تبادل المفاهيم والمناهج	• بحوث مشتركة في قضايا معاصرة مركبة
الغاية العلمية	فهم شامل للظواهر الثقافية	• تفسير متعدد الأبعاد • ربط الثقافة بالمجتمع والسلطة والهوية	• تحليل الظواهر الثقافية المركبة والمعاصرة

خامسا: علاقة علم الاجتماع الثقافي بالعلوم الأخرى

1. علم الاجتماع الثقافي والتاريخ

ترتبط الثقافة بالسياق التاريخي الذي نشأت وتطورت داخله، لذلك يستفيد علم الاجتماع الثقافي من التاريخ في تتبّع **تحوّلات القيم والرموز والتمثّلات عبر الزمن**، فالتاريخ لا يُقدّم مجرد تسلسل زمني للأحداث، بل يكشف عن الشروط الاجتماعية والثقافية التي أنتجت أنماطًا معينة من التفكير والسلوك. ويساعد هذا التكامل على فهم مفاهيم مثل: الذاكرة الجماعية، الهوية التاريخية، والاستمرارية والانقطاع الثقافي.

2. علم الاجتماع الثقافي والفلسفة

تُشكّل الفلسفة الخلفية النظرية العميقة لعلم الاجتماع الثقافي، خاصة في ما يتعلّق بقضايا **المعنى، القيم، التأويل، والوعي**، وقد استفاد علم الاجتماع الثقافي من الفلسفات التأويلية والنقدية (مثل فلسفة التأويل، والفلسفة النقدية، وفلسفة الحداثة) في تحليل الثقافة بوصفها بناءً رمزيًا وإيديولوجيًا. ومن خلال هذا التكامل، يتم الانتقال من الوصف السطحي للثقافة إلى **نقد الثقافة وفهم دلالاتها العميقة**.

3. علم الاجتماع الثقافي وعلم النفس

يهتم علم النفس بدراسة الفرد، في حين يهتم علم الاجتماع الثقافي بدراسة الثقافة بوصفها إطارًا جماعيًا، غير أن العلاقة بينهما علاقة تكامل ضروري، خاصة في دراسة **التنشئة الاجتماعية، والشخصية، والهوية، والتمثلات الاجتماعية**. فالثقافة تؤثر في تشكيل الشخصية، كما أن الأفراد يعيدون إنتاج الثقافة عبر سلوكهم وتفاعلاتهم. ويبرز هذا التكامل بوضوح في دراسات الثقافة والشخصية، والهوية الثقافية، والتمثلات النفسية للرموز الاجتماعية.

4. علم الاجتماع الثقافي وعلم الإعلام والاتصال

في المجتمعات المعاصرة، أصبحت وسائل الإعلام والاتصال من أهم الفضاءات المنتجة للثقافة، مما جعل العلاقة بين علم الاجتماع الثقافي وعلم الإعلام والاتصال علاقة **تداخل معاصر**. حيث يهتم علم الاجتماع الثقافي بتحليل الخطاب الإعلامي، والصورة، والرموز، والثقافة الجماهيرية، وتأثير وسائل الإعلام التقليدية والرقمية في تشكيل الوعي والهوية والقيم. كما يُسهم هذا التكامل في فهم التحولات الثقافية المرتبطة بالعولمة والثقافة الرقمية.

خلاصة المحاضرة

يتبيّن أن علم الاجتماع الثقافي لم يعد مجرد فرع ثانوي داخل السوسيولوجيا، بل أصبح إطارًا تفسيرياً أساسياً لفهم التحولات الاجتماعية من زاوية رمزية ومعنوية. فقد أظهر هذا العلم أن الثقافة ليست عنصرًا تابعًا للبنية الاجتماعية، بل هي فاعل مركزي في تشكيل السلوك، وبناء الهوية، وتنظيم العلاقات الاجتماعية، وإنتاج المعنى داخل المجتمع.

كما أبرزت المحاضرة تنوّع مجالات علم الاجتماع الثقافي، واتساع مناهجه بين الوصفي والتاريخي، والتأويلي والبنيوي، والإثنوغرافي والنقدي، بما يسمح بتحليل الثقافة في مستوياتها المادية والرمزية، المحلية والعالمية. وبيّنت كذلك أن العلاقة بين علم الاجتماع الثقافي والأنثروبولوجيا، وبقية العلوم الإنسانية، لم تعد علاقة فصل أو تنافس، بل علاقة تداخل وتكامل معرفي ومنهجي، تفرضها طبيعة الظواهر الثقافية المعاصرة وتعقيدها.

وعليه، فإن الإلمام بأسس علم الاجتماع الثقافي يمكّن الطالب والباحث من امتلاك أدوات تحليلية نقدية لفهم المجتمع في عمقه الثقافي، ويؤهله لاستيعاب التحولات القيمية والرمزية التي تعرفها المجتمعات الحديثة، خاصة في ظل العولمة، والثقافة الرقمية، وتعدد الهويات، وهو ما يجعل هذا الحقل المعرفي ركيزة أساسية في الدراسات السوسيولوجية والأنثروبولوجية المعاصرة.